

الخير والجمال

أمام كل ما يمكن أن تحتويه الأرض من بؤس إنساني وحقد أعمى وغباء وظلم مقنع ونفاق كرهه، من حقنا أن نتساءل عن فائدة النضال ضد كل هذا وعن جدوى التضحية من أجل عالم أفضل. إن ما قام به والدي طوال حياته يتجاوز بكثير مفهوم المنفعة ليرقى إلى مفهوم الجمال. ليس بإمكان أحد أن يدعي أن حياته كانت نفعية. ولكن هناك اشخاص قلائل جدا يستطيعون القول وعن جدارة واستحقاق أن ما قاموا به في الفترة الفاصلة بين المهذ واللحدكان ينتمي إلى عالم الجمال.

الحياة قصيرة طبعاً. ونحن لا أهمية نذكر لنا، طبعاً. الموت يتربص دائماً بنا بنفاذ صبر. فالحياة ليست سوى حركة.

ونحن لا نعيش هذه الحياة إلا لجمال هذه الحركة. الفنانون وحدهم قادرون على أن يفهموا أن النضال ينتمي إلى عالم الجمال أكثر منه إلى عالم المنفعة... الفنانون وحدهم قادرين على إضافة الشيء المفيد إلى هذا النضال الجميل... الفنانون العباقرة حتى الهوس وحدهم بإمكانهم التوصل إلى التخلي كلية عن كل نزعة أنانية ليضحوا بفرديتهم القوية ويصهرونها في عقيدة كلية من أجل أن يتحول الإنسان إلى فكرة كلية ويجسد الأمل.

كان أبي جميلاً في كل حركاته وفي كل أفكاره وفي كل اهتماماته. كان إنسانياً عندما يفكر في الآخرين كما كان يتحول إلى آلة عندما يفرض عليه الواجب أن ينسى حاجاته الشخصية فيتفرغ كلية للنضال من أجل العدالة وأنسنة النظام المغربي. قليلون جداً هم أولئك الذين يستطيعون التأكيد بدون أدنى تردد، ساعة تحين ساعتهم، وعندما يسترجعون ويستذكرون شريط حياتهم، عدم قيامهم بما يمكن أن يلاموا عليه. وحدهم أولئك الذين لم يخونوا مبادئهم إطلاقاً ولم يكذبوا على أنفسهم يستحقون هذا الشرف. الاثنين ٢١ سبتمبر ١٩٩٨ مات ظلماً من جسّد الاستقامة والجمال.

الفنانون والكائنات البشرية الأصيلة يعرفون تماماً أنه حتى وهو مسجى اليوم في نعشه فإنه ما زال أكثر حياة من الكثيرين ممن أنهكوا قواهم الضحلة في محاولة الإساءة إليه.

لقد مات في عز قوته، كما أن كل أفكاره وآماله احتفظت بكامل جمالها ورونقها، وستظل كذلك دائماً وأبداً بفضل أصالتها. كان يفرض الاحترام، ثم الإعجاب، على الجميع. وإزاء ذلك كان الناس ينقسمون بين الحسد والصدقة الحقيقية. أما اليوم فقد جمعت المصيبة الطرفين. وسواء أكانوا من الأصدقاء أو من الأعداء، فإنه سبق لهم جميعاً أن تناقشوا يوماً مع والدي والتقت أنظارهم بنظرته التي كانت تعرف كيف تصيب، وتعرف كيف تخترق حواجز النفاق. لقد رأوا جميعاً هذه النظرة، نظرتة، التي كانت تفهمهم أنه مهما كانت الفكرة التي يعبرون عنها، فإنها تحظى منه بكل انتباه. كان يحب الجميع ولهذا فهو موجود في داخلنا، في داخل كل الذين عرفوه. كل واحد منا فقد بفقدانه بعضاً من نفسه.

أميين بوسته *

* أميين، ابنه البكر. كانت هذه مناجاة ذاتية بينه وبين والده يوم الوداع الأخير وكان يريد أن تحصر بينهما. وقد ألححت عليه شخصياً، بصفتي والدته، ليقبل بشرها في هذا الكتاب. إن إدراج هذه الكلمة في هذا الكتاب، إلى جانب كلمة شقيقته غيبة، لهُو التعبير عن حبنا العميق الكامل المطلق لهذا الكائن الغالي الذي لا شيء ولا أحد يمكن أن يعوضه.